

السياق وأثره في تحقيق بلاغة الفاصلة في الآيات المتشابهة

أحمد الدياب

جامعة أنقرة. تركيا

الملخص:

Summary:

Researches which will shed light on rhetoric of Qur'an continue increasingly. In the present research, rhyme rhetoric in ambiguous verses will be discussed through context. To do this, I chose ambiguous verses which have the same beginnings but different endings.

Keywords: Rhyme, Verse, Context, Rhetoric,

لا تزال الدراسات تتزاحم في إظهار بلاغة القرآن ونظمه. ويأت هذا البحث ليؤكد على بلاغة الفاصلة في الآيات المتشابهة من خلال السياق القرآني. وقد قمت باختيار بعض الآيات كنموذج للآيات المتشابهة التي تتشابه فيها الافتتاحية ولكنها تتغير في الخاتمة والفاصلة.

الكلمات المفتاحية: الفاصلة، الآية، السياق، بلاغة

مقدمة :

لا شك أن القرآن الكريم يعنى بكل كلمة من كلامه، ولقد كان موضوع الفاصلة محل نقاش واسع بين العلماء، فمنهم من أوجد تعليلاً للفاصلة بأنها تأتي لإتمام الوقع الموسيقي ولإعطاء النفس تأثيراً خاصاً، ومنهم من حاول أن يربط بين الفاصلة ومعنى الآية من الناحية الأسلوبية، فقال للفاصلة انسجام أسلوبى مع الآية¹، ومن العلماء من نظر إلى الفاصلة وقال إنها لا تنفصل عن بلاغة القرآن. وتأتي الفاصلة بأشكال وخصائص متنوعة، فمرة تتقدم كلمة على أخرى ونجد نفس الآية بشكل معاكس، وتأتي الفاصلة أحياناً محذوفة بعض الأحرف ونجدها في مكان آخر مزادة ببعض الأحرف²، وأحياناً تبدل كلمة وتأتي أخرى. ولكن أقول إن القرآن راعى في كل ذلك السياق القرآني فكانت الفاصلة تعبيراً بلاغياً في غاية الروعة والجمال وإن كان لها دور موسيقي و جانب تنغمي، لكنه من المؤكد أن الفاصلة القرآنية كانت من صميم المعنى البلاغي للآية. ويأتي هذا البحث ليؤكد على هذا الجانب.

يقول الله تعالى في سورة الأعراف { ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم 73 }

وقال تعالى في سورة هود { ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب 64 }

وقوله تعالى في سورة الشعراء { ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم 156 }

هذه ثلاث آيات وردت في قصة سيدنا صالح وهي نهي لقومه عن مس الناقة بأذى، لكنها وردت بفواصل مختلفة. وقد جاءت الفاصلة كما هو واضح مرة وصف العذاب بالأليم ومرة وصفته بالقرب ومرة وصفته بالعظيم، فهل يوجد سر وراء هذا التنوع في الفاصلة؟ التمحص في هذه الآيات يسوقنا للحديث عن الفرق اللغوي بين عظيم وأليم مادامت الكلمتان تعطي معنى العذاب الشديد، لكنني أقول إن معنى أليم أشد من معنى عظيم، فيمكن أن يكون العذاب عظيماً ولا يكون أليماً، وأما

الأليم فإن فيه دلالة واضحة على شدة العذاب والقوة³، ومن هنا نستطيع أن نرجع إلى السياق لنحدد هذا التنوع. في سورة الأعراف ذكر التحدي والطغيان والاستهزاء من قبل قوم سيدنا صالح⁴، ومن المنطقي أن يقابل هذا التحدي والاستهزاء ما يردعهم ويصدهم عن هذه القبائح، بينما لا نرى في سوريي هود والشعراء نبرة التحدي والاستهزاء منهم، فمثلاً في سورة هود جاء الأمر منهم بالتطلف عما هو عليه في سورة الأعراف⁵، يقول الله تعالى في سورة هود (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه قريب 62). وأيضاً نرى سياق آية الشعراء أقل طغياناً من آية الأعراف حيث يقول الله تعالى (قالوا إنما أنت من المسحرين 153 ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين 154). بينما نرى السياق النصي للأعراف مختلف نسبياً عن سياق الآيتين السابقتين، فالله عز وجل يقول قبل آية الأعراف (قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون 76 فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين 77). يبدو السياق أكثر تحدياً وعناداً وجبروتاً، فهم جاهرُوا بالكفر، وعتوا عن أمر ربهم ثم أظهروا لهجة التحدي والاستكبار. يقول صاحب البرهان في مجيء آية الأعراف بفاصلة " أليم " أنه لما بالغ في الوعظ بالغ في الوعيد والتهديد فقال: عذاب أليم "6.

نتقل إلى آية أخرى وتنوع الفاصلة بما يقتضيه السياق القرآني، يقول الله تعالى في النساء { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً 48 } النساء، ويقول تعالى في نفس السورة في الآية 116 { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً 116 } النساء. جاءت الفاصلتان مختلفتين مع أن الآية تكاد أن تكون واحدة في اللفظ والمعنى. ولنرى سياق الآيتين، سياق الآية الأولى في حق اليهود وكذبهم وكبرهم وعنادهم وافترائهم⁷، أما الآية الأخرى فهي في سياق الحديث عن المشركين من غير أهل الكتاب وهؤلاء لم ينزل عليهم كتاب بعكس اليهود، فجاءت الفاصلة هنا بأنهم ضلوا ضلالاً بعيداً فهم لم يفتروا على الله الكذب ولكنهم كانوا ضالين في شركهم⁸. لو تذكرنا سياق الآية الأولى لنوضح هذه المسألة أكثر، يقول الله تعالى (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه 46 ... انظر

كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً(50) فمن هذا السياق نرى كيف خُتِمت الآية بقوله تعالى (فقد افترى إثماً عظيماً 48). فهذه الآية جاءت في الحديث عن اليهود وعن افتراءهم الكذب على الله مما ناسب أن تُختم الآية بالافتراء الذي اعتاده اليهود وهم أهل كتاب، أما الآية الثانية فقد وردت في حديث عن المشركين وهم في إشراكهم لا يفترون ولكنهم ضالون ضلالاً بعيداً.9

من الأمثلة الواضحة على اختلاف الفاصلة في الآيات المتشابهة ما جاء في سورة هود والنحل. يقول الله تعالى في سورة هود { لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون 22 }، ويقول تعالى في سورة النحل { لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون 109 }. إن سياق الآيتين يكشف السبب في سر هذا الاختلاف، حيث يقول الله تعالى ما قبل آية هود (الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون 19 أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون 20 أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون 21 لا جرم هم الأخسرون 22)، فالصد من هؤلاء كان لأنفسهم وصدّاً لغيرهم ولذلك كان العذاب مضاعفاً لهم. 10 أما في سورة النحل فكان السياق في مجال الصد فقط لأنفسهم فجاء السياق باسم الفاعل على شكل خبر، فالله عز وجل يقول (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين 107 أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون 108 لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون 109). إن الفرق بين الفاصلتين أن فاصلة آية هود جاءت بصيغة اسم التفضيل العليا أي لا يوجد أخسر منهم لأنهم حاولوا إضلال أنفسهم وإضلال غيرهم، أما فاصلة آية النحل فجاءت بصيغة الخبر التي تفيد بأنهم خاسرون لوحدهم فهم ضلوا فاستحقوا الخسارة. 11

آية أخرى من آيات الفاصلة المختلفة في الآيات المتشابهة، يقول الله تعالى في سورة التوبة { ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم 15 }، ويقول تعالى في نفس السورة { ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم 27 }. آية التوبة الأولى جاءت في حق كفار مكة حيث يقول

تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزيهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين 14) فأمر الله تعالى بقتالهم لما لاقاه المسلمون من شدة وتضييق منهم لكن الله تعالى يترك باب التوبة مفتوحاً رغم ما فعلوه 12، فمن أسلم منهم وتاب فإن الله تعالى يتوب عليه وهذه التوبة متروكة لله عز وجل فهو العليم الحكيم الذي يقدر الأمور ويعرف ما كان من هؤلاء من الشدة والتضييق قبل إسلامهم وتوبتهم. أما الآية الأخرى فجاءت في سياق غزوة حنين حيث أعجب المسلمون بقوتهم وعددهم فلم يفلحوا في تلك الغزوة وتولى كثير منهم عن الرسول الكريم، لكن الله تعالى رغم توليهم في هذه الغزوة إلا أنه تعالى يعرف ما في قلوبهم فكان ختم الآية " والله غفور رحيم "، تظيهاً لهم وبشارة بأن الله تاب عليهم، 13 وهكذا كانت الفاصلة مناسبة لسياق الآيتين.

قال تعالى في سورة الأعراف { وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم 200 }، وقال في سورة فصلت { وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم 36 }، وقال في سورة غافر { إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير 56 }. تتشابه الفاصلة في آية الأعراف وفصلت تشابه تام، لكنهما اختلفتا عن آية غافر. جاءت الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ " السميع العليم " وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالإبصار بلفظ " السميع البصير " لأن أفعال هؤلاء معاينة بالبصر، وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويُدرك بالرؤية. 14

يقول الله تعالى في سورة إبراهيم { وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار 34 } إبراهيم. ويقول تعالى في سورة النحل { وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم 18 } النحل. آية إبراهيم جاءت في سياق ذكر الإنسان ووصف صفاته وما جُبل عليه ولذلك كان من الطبيعي أن تحتتم الآية بوصف للإنسان بأنه " ظلوم كفار "، أما آية النحل فكانت في سياق صفات

الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق ذاته فانتهدت الآية بذكر لصفات الله تعالى. يقول صاحب معترك الأقران: "إنما خص سورة إبراهيم بوصف المنعم عليه وسورة النحل بوصف المنعم، لأنه في سورة إبراهيم في مساق وصف الإنسان وفي سورة النحل في مساق صفات الله وإثبات ألوهيته" 15.

الخاتمة:

من خلال هذا البحث توصلت إلى بعض النتائج منها

لا يمكن أن يحيط بموضوع الفاصلة إلا من له علم بالعربية وبلاغتها، فكما قلت إن الفاصلة لا تنفصل عن بلاغة القرآن بشكل من الأشكال.

الفاصلة غالباً ما تتعلق بسياق الآية فهي لم تأت لمجرد القفلة وإنما يصب معناها في خانة بلاغة الآية ككل.

من العلماء من قال إن الفاصلة تأت لنواح موسيقية، فقد قالوا إن الفاصلة تأتي لإتمام الجرس الموسيقي ولتعطي الأذن حساً تنغيمياً، وهذا ربما يكون صحيحاً ولكنها في نفس الوقت تأخذ باعتبار المعنى والبلاغة السياقية.

تتحد في الفاصلة كل النواحي التعبيرية والفنية، فنجد السياق موجوداً ومقتضى الحال كذلك والجرس يمتزج بالسياق من جهة ويمتزج بالنواحي التعبيرية من ناحية أخرى، ولذلك لا يمكن أن تُستبدل الفاصلة بكلمة أخرى لتحل محلها.

ولذلك تعتبر الفاصلة مركز الثقل الفني والتعبيري، فهي تعطي تلميحاً وإشارة لما قبلها من كلام وهذا من براعة الفاصلة القرآنية، وكلنا يعرف القصة المشهورة التي سمع فيها أعرابي إماماً يقرأ ولكنه أخطأ بالفاصلة وكاد هذا الخطأ أن يدخل الشك في قلب الأعرابي.

الهوامش:

- 1- الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، ص23
- 2- فواصل الآيات القرآنية، كمال الدين عبد الغني المرسى، ص31
- 3- لسان العرب، مادة ألم
- 4- أنوار التنزيل، القاضي البيضاوي، ج2، ص142
- 5- البحر المحيط، أبو حيان، ج3، ص122
- 6- البرهان في متشابه القرآن، محمد الكرمانى، ص146
- 7- تفسير ابن كثير، ج3، ص85
- 8- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، ج4، ص97
- 9- من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص85
- 10- فتح القدير، الشوكاني، ص153
- 11- درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي، ج2، ص219
- 12- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، ص143
- 13- ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي، ج1، ص456
- 14- التفسير القيم، ابن القيم، ص122
- 15- معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ج1 ص44

المصادر والمراجع:

- أنوار التنزيل، القاضي البيضاوي، المطبعة العثمانية، 1305
- البحر المحيط، أبو حيان التوحيدي، مطبعة السعادة، مصر، 1328
- البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، محمد بن حمزة الكرمانى، رسالة ماجستير حققها الطالب ناصر بن سليمان العمر، مكتوبة بالآلة الكاتبة.
- التفسير القيم، ابن القيم، جمع محمد أويس الندوي، مطبعة المحمدية، 1973
- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، المطبعة البهية، مصر.
- تفسير ابن كثير، طبع بدار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.
- درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1973
- الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، دار عمار، الأردن، 2000
- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1349

فواصل الآيات القرآنية، كمال الدين عبد الغني المرسى، المكتب الجامعي الحديث، 1999.

مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي، كتا بفروشي إسلامية، طهران

معتزك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الثقافة العربية للطباعة.

ملاك التأويل القاطع بذي الإلحاد والتعطيل في توجيهه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي، دار النهضة، بيروت،

1985

من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، مطبعة لجنة البيان العربي